هو عالم، يحشر فيه الحاضر دائما بين المستقبل والماضي على حد سواء، بينما تتم إعادة كتابة كل وثيقة وكل مقال وكل جزء من التاريخ باستمرار، حيث كانت مهمة سميث. وفي الوقت نفسه، يتم تغيير وثائق الماضي بما يتوافق مع سياسة الحزب، ثم يتم التخلص منها وحرقها. إنه عالم تتواجد فيه شاشات البث في كل غرفة، تذيع الأخبار بشكل مستمر، ويمكن لهذه الشاشة أيضا التجسس عليك في أي لحظة تقريبا في حياتك. وفي هذا الشأن، تحدث أورويل، الذي عاش في وقت كان التلفزيون فيه جهازا جديدا، عن عوالم المراقبة ووسائل التواصل الاجتماعي المستقبلية.

نعيش الآن بالفعل على كوكب ديستوبي. ففي التهديدات التي تواجهها إمدادات الغذاء في العالم وغمر المدن الساحلية، وهجرة السكان، مع ارتفاع الحرارة إلى مستويات قد تصبح في بعض الأماكن غير محتملة، مما يترك أجزاء من الكوكب غير صالحة للسكن، من الممكن الآن على الأقل تخيل الانهيار المستقبلي للحضارة نفسها

في عالمه الديستوبي، تتم إعادة صياغة اللغة الإنكليزية نفسها إلى لغة خيالية تسمى "نيوسبيك"، بحيث في المستقبل البعيد، سيكون من المستحيل على أي شخص التعبير عن أفكار غير معتمدة من قبل الحزب. وفي الوقت نفسه، فإن أيا من القوتين العظميين المنافستين لأوشينيا، وكذلك أي معارضة محلية محتملة للحزب، تخضع بانتظام لجلسة من الكراهية. وفي عالم الشاشات والملصقات واللافتات، يظهر وجه الأخ الأكبر ذو الشارب الكثيف والزعيم الرسمي للحزب، والذي يتلقى الدعم المباشر من وزارة الحب (المعنية بالسجن، وإعادة التعليم، والتعذيب، والألم، والموت).

كانت تلك هي صورة أورويل عن الاتحاد السوفيتي بقيادة ستالين الذي كان مثاليا وقتها للتعبير عن مستقبل من الرعب الأبدي. واليوم، يمكن القول إن الأميركيين يدخلون إلى العالم الغريب لهذه الرواية. حيث في عالمنا، يبدو دونالد ترامب وإدارته بالفعل وكأنهما مزيج من وزارة الحقيقة، وبئر الذكريات، وجلسات الكراهية التي تعتبر جوهرا أساسيا في مسيراته، ومؤخرا جريمة "الكراهية" التي وقعت في إل باسو، تكساس، من قبل رجل مسلح يتبع مبادئ ترامب بشأن الغزو، معتقدا بذلك أنه قد يطهر تكساس من الغزو اللاتيني.

وبمعنى ما، يمكن تشبيه الرئيس ترامب بالأخ الأكبر ولكن بصورة عكسية. فترامب لا يشاهدنا في كل لحظة من النهار والليل، نحن الذين نراقبه بطريقة غير مسبوقة من خلال تسليط وسائل الإعلام الضوء عليه. لم تتم مراقبة شخص ما بمثل هذه الطريقة من قبل، كل إيماءة، تغريدة، تعليق، فكرة، شعار، تصريح إلخ. في الماضي، كان حجم هذه التغطيات يحدث فقط في حوادث اغتيالات الرؤساء على سبيل المثال، وليس لأحداث الحياة اليومية كما يحدث في البيت الأبيض.

الغرفة 101 (عام 2019)

فكر في أميركا في عهد ترامب على أنها نسخة ساخرة من رواية 1984. ومع ذلك، ليس من المستغرب، أن تكون نظرة أورويل إلى المستقبل قصيرة المدى. إن ما لم يره أثناء اندفاعه لإنهاء تلك الرواية قبل انتهاء حياته، يجعل حاضر ترامب ديستوبيا بشكل أكبر مما كان متخيلا. وفي روايته، ابتكر أورويل رؤية لشيء مثل الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيتي في عهد ستالين الذي كان يحاول أن يخلد نفسه إلى الأبد من خلال تجديد قوته المطلقة وتعزيزها باستمرار.

وفي روايته 1948، عرف أورويل بشأن هيروشيما وناغازاكي والأسلحة التي تم استخدامها في ذلك الوقت. ولكن ما لم يكن يتخيله في كتابه كان عالما ديستوبيا لم يعكس الاستمرارية بل النهايات والتدمير. لم يستحضر نهاية العالم النووية التي تطلقها إحدى القوى العظمى الثلاث، وبالطبع لم تكن لديه أي وسيلة لتخيل نوع آخر من نهاية العالم المحتملة التي أصبحت مألوفة بالنسبة لنا، وهي تغير المناخ.

ولسوء الحظ، في كلتا الحالتين يثبت دونالد ترامب أنه ديستوبي بحق. فهو الرئيس الذي هدد بصب غضبه على كوريا الشمالية بشكل غير مسبوق للعالم، قبل أن يقع في حب نظيره الكوري. بل وادعى مؤخرا أنه قادر على تحقيق النصر في الحرب الأفغانية التي دامت 18 عاما تقريبا "خلال أسبوع" عن طريق تدمير ذلك البلد وإزالته "من على وجه الأرض" وقتل "10 ملايين شخص".

لأول مرة، استخدم جنرالاته من العسكريين "أم القنابل"، وهو أقوى سلاح في ترسانة الولايات المتحدة، والتي يمكن أن تُحدث سحابة يمكن رؤيتها على بعد 20 ميلا، في نفس البلد، لإبهاره والتأثير عليه.

وفي الآونة الأخيرة، بدءا من انسحابها من معاهدة القوات النووية متوسطة المدى لعام 1987، بدأت إدارته في تحطيم الهندسة النووية في حقبة الحرب الباردة التي كانت تحافظ على ترسانات القوى العظمى تحت سيطرة معينة. وبذلك تساعد الإدارة الأميركية في إطلاق سباق تسلح نووي جديد على كوكب الأرض. وهذا يحدث في وقت نعلم فيه أن حربا نووية محلية نسبيا بين القوى الإقليمية مثل الهند وباكستان (المتصارعتين على إقليم كشمير) يمكن أن تخلق شتاءا نوويا عالميا وأن تتسبب في تجويع ما يصل إلى مليار شخص.

ضع في اعتبارك أيضا أن كل ذلك يمكن أن يكون أقل تصرفات دونالد ترامب الحقيقية عندما يتعلق الأمر بالمستقبل النهائي للبشرية. حيث هو وإدارته يبذلان قصارى جهدهما للمساعدة في إحداث تغير المناخ والتحريض عليه من خلال ضمان إطلاق المزيد من الكربون في الغلاف الجوي، مما يؤدي إلى ارتفاع درجة حرارة الكوكب، وهو الكوكب ذاته الذي أحرقت عليه البشرية، منذ عام 1990، نصف جميع أنواع الوقود الأحفوري التي تم استخدامها على الإطلاق. وعلى الرغم من اتفاق المناخ في باريس والكثير من الحديث عن ضرورة السيطرة على تغير المناخ، لا يزال متواصلا إطلاق الكربون في الغلاف الجوي بمستويات قياسية. وليس من المستغرب أن الانبعاثات الأميركية بدأت في الارتفاع مرة أخرى في عام 2018.

وخلال هذا الصيف، ووسط موجات الحرارة العنيفة في الولايات المتحدة وأوروبا وأماكن أخرى، ومع احتراق أجزاء من المنطقة القطبية الشمالية بسبب تسخينها بمقدار ضعف المعدل العالمي، مع ذوبان جرينلاند، والجليد البحري في القارة القطبية الجنوبية بكميات قياسية، يبدو أن بعض توقعات الفريق الحكومي الدولي المعني بتغير المناخ التابع للأمم المتحدة بشأن المستقبل البعيد تلوح الآن في الأفق. وكما قال عالم المناخ ماركو تيديسكو مؤخرا، متحدثا عن القطب الشمالي، "إننا نشهد ذوبان الجليد الآن بعد أن توقعنا حدوث ذلك بعد 30 إلى 40 عاما من الآن".

وبعبارة أخرى، نعيش الآن بالفعل على كوكب ديستوبي. ففي التهديدات التي تواجهها إمدادات الغذاء في العالم وغمر المدن الساحلية، وهجرة السكان، مع ارتفاع الحرارة إلى مستويات قد تصبح في بعض الأماكن غير محتملة، مما يترك أجزاء من الكوكب غير صالحة للسكن، من الممكن الآن على الأقل تخيل الانهيار المستقبلي للحضارة نفسها.

ويجب أن نتذكر أيضا أن النسخة المشابهة للأخ الأكبر، ولكن ذو الشعر البرتقالي، يمكن أن تكون موجودة لفترة أطول بكثير، إذا فاز في انتخابات عام 2020.

وبعبارة أخرى، وإذا عدنا إلى رواية 1984، نجد وينستون سميث، الذي كان معارضا للحزب، تم القبض عليه وجلبه إلى وزارة الحب من قبل شرطة الفكر ليكمل عمله في ما يتوافق مع سياسة الحزب. في هذه الأثناء، تعرض سميث للتعذيب الوحشي حتى يتمكن من الموافقة حقا على أن 2 + 2 = 5. وعندما يظن أنه عدل رأيه ليتناسب مع الحزب، يكتشف أن مصاعبه لم تنته بعد.

إذ لا يزال يتعين عليه زيارة القاعة 101. كما أخبره المحقق، "لقد سألتني ذات مرة عما كان في القاعة 101. أخبرتك أنك تعرف الإجابة بالفعل. الجميع يعرف ذلك. إن الشيء الموجود في الغرفة 101 هو أسوأ شيء في العالم، وتحتوي على أسوأ مخاوف السجين".

لذلك، هناك طريقة واحدة للتفكير في ما نحن فيه الآن على كوكب الأرض: الأميركيون، بل وكل البشر، ربما يكونون بالفعل في الغرفة 101، سواء كنا نعرف ذلك أم لا، والحقيقة أن معظمنا يجب أن يعرف ذلك. ومن الواضح أن الوقت قد حان للعمل على نطاق عالمي، وأنه يجب أن نقول ذلك أيضا للأخ الأكبر.

النص الروائي والنص التاريخي

صبحي حديدي يدرس علاقة التاريخ بالرواية في أعمال سردية عربية

آسيا جبار استلهمت التاريخ في الرواية

عواد علي
كاتب عراقي

شغلت العلاقة الإشكالية بين الرواية والتاريخ، أو الشراكة والتنافر بينهما اهتمام العديد من النقاد العرب، المتخصصين والمعنيين بالسرد، وأثارت في السنوات الأخيرة سجالا وجدلا اصطلاحيا ومفهوميا مفتوحا بينهم تبدّى في كتب وأبحاث ومقالات ومؤتمرات وندوات. وكانت هذه العلاقة مثار نقاش عميق دار في الغرب بين النقاد والفلاسفة منذ عقود خلت، أفضى إلى إجابات مختلفة، طبقا لاختلاف توجهاتهم ورؤاهم حول طبيعة المدونة التاريخية وطبيعة المدونة السَرديّة.

من بين النقاد العرب الذين شغلتهم هذه العلاقة، والمفهوم الذي يؤطرها، عبدالله إبراهيم، سعيد يقطين، فاضل ثامر، فخري صالح، نادية هناوي، وصبحي حديدي. دعا عبدالله إبراهيم، في كتابه "التخيّل التاريخي" إلى إحلال مصطلح "التخيّل التاريخي" (الذي يعني المادة التاريخية المتشكلة بواسطة السرد، وقد انقطعت عن وظيفتها التوثيقية والوصفية وأصبحت تؤدي وظيفة جمالية ورمزية) محل مصطلح "الرواية التاريخية"، مؤكدا أن هذا الإحلال سوف يدفع بالكتابة السردية إلى تخطي مشكلة الأنواع الأدبية وحدودها ووظائفها، ويفكك ثنائية الرواية والتاريخ، ويعيد دمجهما في هوية سردية جديدة، فلا يرهن نفسه لأيّ منهما، كما أنه سوف يحيّد أمر البحث في مقدار خضوع التخيلات السردية لمبدأ مطابقة المرجعيات التاريخية، فينفتح على كتابة لا تحمل وقائع التاريخ ولا تعرّفها، إنما تبحث في طياتها عن العبر المتناظرة بين الماضي والحاضر، وبين التماثلات الرمزية فيما بينهما، فضلا عن استيحاء التأملات والمصائر والتوترات والانهيارات القيمية والتطلعات الكبرى، فتجعل منها أطرا ناظمة لأحداثها ودلالاتها.

وخالف سعيد يقطين دعوة عبدالله إبراهيم، ذاهبا إلى أن مفهوم "التخيّل التاريخي" محاولة ملتبسة لتقديمها نوعا بديلا عن مفهوم "الرواية التاريخية"، الذي هو مفهوم نوعي لاتصاله بتحقق سردي له تاريخ في الإنجاز الروائي العربي والغربي. وجزم يقطين أنه لا يمكن لأيّ كان أن يدّعي أنه سيلغيه من التاريخ، ويحل محله مفهوما آخر، إذ أننا عندما نقول "رواية تاريخية" فمعنى ذلك أننا خرجنا من التاريخ باعتباره "علما" إلى الرواية بصفتها "تخييلا"، أو "تخيّلا". وخلص يقطين إلى إن هذا الإحلال لا يقدّم شيئا جديدا.

وقدم فاضل ثامر محاولة في قراءة الرواية العربية الحداثية وما بعد الحداثية في تعاملها مع التاريخ، بين الامتثال لفتنة التخييل كليا وإعلان القطيعة مع ما هو تاريخي ورسمي، وبين محاولة خلق تاريخ بديل يشاكس التاريخ الرسمي الذي هو تاريخ الملوك والسلاطين والحكام المنتصرين. وركز ثامر كثيرا على الميتاسرد من الناحية الاصطلاحية، مجترحا للرواية التي تتناول التاريخ مصطلح "رواية الميتاسرد التاريخي" أو "الرواية الميتاسردية التاريخية". لكن الناقد لم يستقر على مصطلح واحد، فقد استخدم تارة "الميتارواية التاريخية"، وتارة ثانية "الرواية التاريخية ما بعد الحداثية"، وتارة ثالثة "الميتاسرد التاريخي"، مُقِرّا بأن ثمة تنازعا دائما بين التاريخي والمتخيّل بوصفهما سلطتين. كما وجد أن مصطلح "التخيّل التاريخي"، الذي اقترحه عبدالله إبراهيم، يثير لبسا وتساؤلات. ورأى فخري صالح أن اللجوء إلى التاريخ ليس هاجسا سرديا شكليا فقط، بل هو في الأساس هاجس سياسي متصل بأزمة الهوية والتجربة الوجودية التي يخوضها الإنسان العربي المعاصر. ولا يتصل بحث الروائي في مادة التاريخ بمحاولة تجديد روح كتابته، أو رغبة في إعادة تأويل التاريخ مجددا، بل يتصل في الأساس بمحاولة البحث عن الأوّليات (الميكانيزمات) التي حركت ذلك التاريخ، ويمكن أن تكون هي نفسها التي تحرك الحاضر. فعمل الروائي يشتبك مع عمل المؤرخ الذي يسعى إلى تأويل التاريخ، لكنه يتجاوزه، في خطوة متقدمة إلى الأمام، ليؤوّل الحاضر ويقع على تفسير لمشكلاته المركبة ومعضلاته المعقدة التي لا تفسرها المعارف السياسية والاستراتيجية وعلوم النفس والاجتماع.

يسعى صبحي حديدي إلى دراسة علاقة التاريخ بالأدب عبر أسئلة من قبيل: هل توجد إشكالية "تنازعية" بين التاريخ والأدب؟ وهل في وسع وقائع الأرشيف أن تُضارب، أو تتضارب مع فنون السرد ومجازاته؟ وهل توجد رابطة، أو سلسلة روابط بين النصّ الروائي والنصّ التاريخي؟

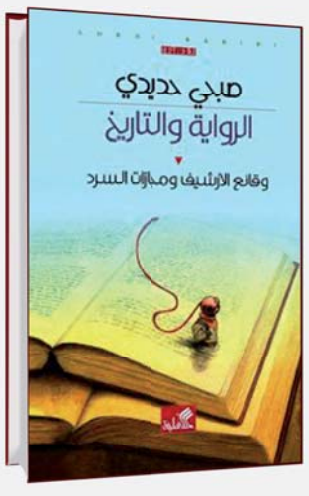

وتبنت نادية هناوي مصطلح "رواية التاريخ"، الذي تقترحه كصيغة سردية، وفحصه ومقارنته مع مفاهيم وطروحات عربية وأجنبية. إن "رواية التاريخ"، في رأيها، تتعالى على المعتاد والمطروح، من زاوية أنها ليست انحيازا للشكل كما هو الحال في الرواية الميتاسردية، وهي لا تغلب الإطار الموضوعي كما هو شأن الرواية التاريخية والرواية الواقعية، بل هي أجناسية سردية بغيتها الأساس هي الاشتغال الشكلي والموضوعي معا، في إطار ما بعد حداثي يتبنى طروحات فلسفية معينة.

لكن هناوي تعترف بأن إثبات مصطلح "رواية التاريخ" على مصطلحات أخرى مثل "رواية محكي التاريخ"، أو "رواية المتخيل التاريخي"، أو "الرواية الميتاتاريخية" وغيرها أمر شبه محال لأن ذلك يتطلب توافقا نقديا عربيا من نواح مختلفة تتصل نظريا بالترجمة والفلسفة والتاريخ واللغة والنقد والسرد. ومع ذلك أقرت هناوي بأن إمكانية اجتراح توصيف ما، والاهتداء إليه، لا يفسد في المسألة أمرا، ولا يصادر توجهات معينة، كما لا يناقض توجهات أخرى.

في كتابه "الرواية والتاريخ: وقائع الأرشيف ومجازات السرد"، الصادر حديثا عن منشورات الأهلية في عمان، يسعى صبحي حديدي إلى دراسة علاقة التاريخ بالأدب عبر أسئلة من قبيل: هل توجد إشكالية "تنازعية" بين التاريخ والأدب؟ وهل في وسع وقائع الأرشيف أن تُضارب، أو تتضارب مع فنون السرد ومجازاته؟ وهل توجد رابطة، أو سلسلة روابط بين النصّ الروائي والنصّ التاريخي؟

ويرى حديدي أنه مع منجزات نقاد غربيين من أمثال جورج لوكاش ووالتر بنيامين ورايموند وليامز في تعميق صلة الرواية بالتاريخ، وأشغال المدرسة التاريخانية الجديدة في نقد مرجعية أيّ "حقيقة" في أيّ تاريخ كوني، بات متاحا أمام النظرية النقدية المعاصرة أن تعيد تثمين سرديات الشعوب التي طُردت من فردوس الحقيقة الكونية (بوصفها "شعوبًا بلا تاريخ" على حدّ تعبير هيغل)، وأن ترى الحكايات الكبرى التي أُخرست في الماضي وهي تنهض من رماد، وتجثم كالكابوس على حاضر الأحياء.

مع منجزات نقاد غربيين من أمثال جورج لوكاش ووالتر بنيامين ورايموند وليامز في تعميق صلة الرواية بالتاريخ، وأشغال المدرسة التاريخانية الجديدة في نقد مرجعية أيّ «حقيقة» في أيّ تاريخ كوني، بات متاحا أمام النظرية النقدية المعاصرة أن تعيد تثمين سرديات الشعوب التي ردت من فردوس الحقيقة الكونية

وفي ضوء هذه الخلاصة يتضمن كتاب صبحي حديدي قراءات في أعمال سردية لسليم بركات، آسيا جبار، أهداف سويف، هدى بركات، إلياس خوري، محمد خضير، سعيد الكفراوي، نجوى بركات، صلاح الوديع، جيمس جويس، ياسوناري كاواباتا، ياشار كمال، أمبرتو إيكو، طارق علي، ف. س. نايبول، وإيمري كيرتش.

في تقديمه للكتاب، يوضح حديدي أن الدراسات والمقالات والمراجعات التي يتضمنها كُتبت في فترات متباعدة، ونهضت من ثم على جملة قناعات كان لا بدّ للزمن أن يلعب دوره في تعميقها وتشذيبها وتعديلها، وربما تبديلها؛ وإنْ في حدود يجدها غير حاسمة. وقد نُشرت في دوريات وصحف، أو قُدّمت في ندوات ومؤتمرات شتى.

ويقف حديدي، في سياق تساؤله عمّا إذا كانت توجد رابطة، أو سلسلة روابط، تكاملية أو تصالحية بين النصّ الروائي والنصّ التاريخي، على أربع إجابات قدّمتها نظريات الأدب ونظريات التاريخ هي: النصوص الأدبية ليست بنْت زمن محدد لأنها كونية وعابرة للتاريخ، إذا لم تكن مجافية له. السياق التاريخي للعمل الأدبي، أي تلك الظروف التي اكتنفت إنجازه، سواء لجهة ظروف المجتمع أم ظروف الأديب عامل تكويني ضروري لفهم العمل الأدبي. الأعمال الأدبية يمكن، بل وينبغي، أن تساعدنا في فهم الزمن الذي تصفه أو تتكئ عليه، سواء لجهة المجتمع عمومًا، أو لجهة تيارات وأساليب الأدب في العصر المَعْني. النصوص الأدبية مرتبطة بخطابات وبُنى بلاغية أخرى. إنها جزء من تاريخ ما يزال في طور الكتابة. والعلاقة الحقّة لا تقوم على تناظر الأدب والتاريخ، بل على الأدب في التاريخ.